# صفحات ونفحات

## التصوف علم و عمل و أخلاق

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب جامعة القاهرة

للتصوف الإسلامى فى نشأته وتطوره أطوار مختلفة تعاقبت عليه، وتعريفات عدة تعددت بتعدد الصوفية ، وتفاوتت بتفاوت الطرق التى اصطنعها كل من الصوفية فى رياضة نفسه ، وتباينت بتباين المسالك التى سلكوها ، والمذاهب التى ذهبوا فى فهم معنى التصوف وتحديد موضوعه وبيان غايته . ولكن هذه التعريفات على كثرتها وتعدد أصحابها ، وتلك الأطوار على تعاقبها واختلاف العوامل التى عملت عملها فى كل طور منها ، إذا أحصيت واستقصيت وفهمت مبانيها ومراميها فهما يقوم على الموازنة والمقارنة والملاءمة ، يمكن أن يستخلص منها معنى جامع هو أشمل مايكون لمعانى التصوف المختلفة ، وأدل ما يكون على حقيقته فى أطواره المتعاقبة ، لا سيما ما كان من هذه الأطوار متعلقا بتكوين التصوف تكويناً علمياً يجعل منه علماً خاصاً ببواطن القلوب وما يجرى على هذه البواطن من أحكام،ومقابلا لطائفة من العلوم الشرعية الإسلاميه التى تعنى بظاهر الأحكام سواء ما يجرى من هذه الأحكام ، على الجوارح كما هو الشأن فى علم الفقه ، أو ما يجرى منها على العقائد كما هو الشأن فى علم الكلام : فالتصوف الإسلامى باعتباره علما لبواطن القلوب يمكن أن يعرف بأنه رياضة القلب ومجاهدة النفس بحيث تحصل الأذواق وتقع المشاهدات . وفى هذه المشاهدات وتلك الأذواق تنكشف الحقائق ، وتعرف الدقائق ، ويعرف الإنسان ربه معرفة يقينيه لا يأتيها

الشك من بين يديها ولا من خلفها، ويستشعر من معرفته هذه سعادة لا تعدلها سعادة أخرى مهما كانت هذه السعادة حسية أو عقلية .

والتصوف بهذا المعنى الجامع ليس علما فحسب ، ولا عملا فحسب ، وإنما هو علم وعمل معاً : فهو علم بما ينبغى أن يعرفه الإنسان من أمر نفسه وطبيعتها وآفاتها وخواطرها ، وما تصفو به وتنقى ، وتسمو به وترقى من ألوان الرياضة والمجاهدة ، ووسائل التصفية والتنقية ، ثم هو عمل بما علمه الإنسان من هذا كله ، وتحقيق له وتحقق به فى حياته الخاصة والعامة سواء فيما بينه وبين نفسه ، أو فيما بينه وبين أشباهه ، أو فيما بينه وبين ربه ، وذلك كله على وجه تتحقق فيه المثل الأخلاقية العليا التى ينتفى معها الشر ويتحقق فيها الخير . على أن هذا العمل بما علمه الإنسان من شأنه أن يوصل صاحبه إلى علم آخر أرقى وأسمى من العلم الأول ، وهذا العلم الآخر لا يحصل عن طريق الدراسة ، ولا يتلقى على يد معلم ، وإنما هو نور يقذفه الله فى قلب العبد ، وقد رق حسه وصفت نفسه وانجابت الحجب عن عين قلبه بفضل ما أخضع له نفسه من مجاهدة ، وما أخذ به قلبه من رياضة ، وهذا العلم الذى يأتى بعد العمل هو الذى يطلق عليه الصوفية أسم المعرفة أو العرفان الذى تحصل فيه المشاهدة والعيان ، ويتميز بإنه وهبى من لدن الله عن العلم السابق على العمل ، فإن هذا كسبى يأتى من جانب الإنسان ، ويرجع إلى ما يبذله فى سبيل تحصيله من جهد ، ويقوم على الدليل والبرهان بقدر ما يستند العرفان على المشاهدة والعيان . ومن هنا يتبين وجه العلاقة بين العلوم الكسبية الإنسانية وبين الوهبية الألهية ، كما يتبين أن العلوم الكسبية الإنسانية إنما هى من العلوم الوهبية الألهية بمثابة المدخل لها ، أو التمهيد الذى يهيىء نفس السالك وقلبه وعقله بحيث يصبح أهلا لأن تشرق فى باطنه أنوار العرفان الإلهى أو المعرفة اللدنية . وقد أبان أبو بكر محمد بن أسحق البخارى الكلاباذى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م فى معرض حديثه عن علوم الصوفية وإثباته أنها علوم أحوال ، عن أصناف العلوم التى ينبغى أن يقف عليها ويتحقق بها السالك طريق الصوفية فيما هو بسبيله من تصحيح أعماله ، وذلك فى قوله : « وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها ، وهى علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه ، من الصلاة والصوم وسائر

الفروض ، إلى علم المعاملات من النكاح والطلاق والمبايعات وسائر ما أوجب الله تعالى وندب إليه وما لا غناء به عنه من أمور المعاش، وهذه علوم التعلم والاكتساب: فأول مايلزم العبد الاجتهاد فى طلب هذا العلم وأحكامه على قدر ما أمكنه ووسعة طبعه، وقوى عليه فهمه بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه بالقدر الذى يتيقن بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة ، فإن وفق لما فوقه من نفى الشبه التى تعترضه من خاطر أو ناظر فذاك ، وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاما بالجملة التى عرفها ، ونجاق عن الناظر الذى يحاجه فيه ويجادله عليه وباعده ، فهو فى سعة إن شاء الله عز وجل ، واشتغل باستعماله علمه وعمل بما علم : فأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها ومكائد العدو وفتنة الدنيا وسبيل الاحتراز منها ، وهذا العلم علم الحكمة فإذا استقامت النفس على الواجب وصلحت طباعها ، وتأدبت بآداب الله عز وجل من زم جوارحها ، وحفظ أطرافها ، وجمع حواسها ، سهل عليه إصلاح أخلاقها ، وتطهير الظاهر منها ، والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا ، وإعراضها عنها ، فعند ذلك يمكن مراقبة الخواطر ، وتطهير السرائر ، وهذا هو علم المعرفة » .

وبعد أن عدد الكلاباذى أصناف العلوم التى يستعان بها على تمهيد النفس الإنسانية وتطهيرها من آفاتها وتهذيب أخلاقها على هذا الوجه الذى يعلم فيه الإنسان أولا ، ثم يعمل فيه بعد ذلك بما علم ، يحدثنا عما يرتب على هذا العمل وذلك العلم من علوم أخرى أدق وأعمق ، وأكمل وأوغل فى مكاشفة الأسرار ، ومشاهدة الأنوار ، وهى أخص خصائص العلوم الصوفية ، وذلك فى قوله : « ثم وراء هذا علوم الخواطر ، وعلوم المشاهدات والمكاشفات ، وهى التى تختص بعلم الإشارة ، وهو العلم الذى تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التى وصفناها . وإنما قيل علم الإشارة ، لأن مشاهدات القلوب ، ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال ، وحل تلك المقامات» .

والتأمل فى تاريخ التصوف الإسلامى ، وفيما اختلف عليه من أطوار ، وفيما كان له من خصائص فى كل طور من هذه الأطوار ، يلاحظ أن الآثار الروحية التى خلفها

صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة ، فضلا عن الأقوال والمناجيات التى أثرت عن زهاد وعباد القرنين الأولين للهجرة ، يلاحظ أن كل أولئك أو جله على أقل تقدير كان يتسم بسمات نفسية وأخلاقية وميتافيزيقية ، وأن المعانى الأخلاقية كانت فيه أوغل ، وعلى التصوف العلمى والعملى أغلب ، وفى نفوس الزهاد والعباد والصوفية أفعل ، ولقد كانت غلبة الخصائص الأخلاقية على التصوف الإسلامى دافعاً للمغفور له أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق نضر الله وجهه إلى أن يعد التصوف فى أول عهده بالتكون العلمى علما للأخلاق الدينية الإسلامية ومعانى العبادة ، مستدلا رحمه الله على ذلك بقول ابن القيم فى (مدارج السالكين) وهو: « واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق » ، وبقوله أيضاً : « إن هذا العلم مبنى على الإرادة ، فهى أساسه ، ومجمع بنائه ؛ وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهى حركة القلب ، ولهذا سمى علم الباطن ، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا سمى علم الظاهر » ؛ وبقول الكتانى : « التصوف هو الخلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء » ؛ وبقول من قال : « علم السلوك هو معرفة النفس ما لها وما عليها من الوجدانيات ، ويسمى بعلم الأخلاق ، وعلم التصوف » . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان للتصوف أسماء هى أدل ما تكون على منازعه وخصائصه الأخلاقية ، كأن يسمى تارة بعلم الأحوال والمقامات ، وتارة أخرى بعلم السلوك ، وحينا بعلم الطريقة ، وأحياناً أخرى بأسماء أخرى ملائمة لما يندرج تحتها من أبواب فى التهذيب والتأديب والخلق ، تبينا إلى أى حد وعلى أى وجه يمكن أن يعد التصوف علماً للأخلاق . ويعد الصوفية علماء للأخلاق ، وتعد الطرق الصوفية بمن يجتمع فيها من المريدين المسترشدين حول المشايخ المرشدين ، وسائل لتأديب النفوس وتهذيب الأخلاق والبلوغ بالسالكين إلى كمال العلم وكمال العمل .

ولعل فيما عرف به الصوفية التصوف من تعريفات ما يدل دلالة صريحة واضحة على العناصر الأخلاقية التى اشتمل عليها علمهم ، وعلى ما ينبغى أن يحققه سالك طريقهم من المثل العليا التى تنطوى على أسمى الغايات وأرق معانى الحق والخير : فقد عرف أبو محمد الجريرى التصوف بأنه : « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج

من كل خلق دنى » ؛ وعرفه الجنيد بأنه : « تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة » ؛ وقال رويم إن التصوف مبنى على ثلاث خصال إحداها عنده التحقق بالبذل والإيثار ؛ وذكر أبو الحسن محمد بن أحمد الفارس أن للتصوف أركاناً عشرة منها حسن العشرة ، وإيثار الإيثار : فالدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ، اللذان ذكرهما الجريرى فى تعريفه ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الشريعة ، التى ذكرها الجنيد فى تعريفه ، والتحقق بالبذل والإيثار الذى ذكره رويم ، وحسن العشرة وإيثار الإيثار اللذان جعلهما الفارس ركنين من أركان التصوف ، كل أولئك شواهد صدق وأدلة حق على أن للرياضات والأذواق التى هى قوام التصوف خصائص أخلاقية إلى جانب ما لها من خصائص نفسية وميتافيزيقية ، إذ النفس الإنسانية التى عنى الصوفية بتحليلها ووصف آفاتها هى التى وضعوا لها قواعد السلوك ووسائل الرياضة ، وهى التى أفاضوا فى دراسة حقيقتها ؛ والإبانة عن مصدرها الأول الذى صدرت عنه ، وعن مصيرها الأخير الذى ستنتهى إليه ، وهى بعد هذا كله التى أفاضوا فى وصف أحوالها ومقاماتها ، وما يعرض لها فى هذه المقامات وتلك الأحوال من أذواق ومواجيد ومشاهدات . ولهذا لا تكاد نجد مذهبا صوفيا بالمعنى الدقيق إلا وقد ائتلفت فيه العناصر النفسية والأخلاقية . والميتافيزيقية ائتلافاً يختلط فيه بعض هذه العناصر ببعض بحيث تبدو كأنها وحدة مؤتلفة الأجزاء ، متسعة الأبعاض ، وبحيث لا يتبين الفرق بينها إلا التحليل الدقيق لما اختلف على نفوس الصوفية من أحوال ومقامات ، وما أخذوا به أنفسهم من رياضات ومجاهدات ، وما انكشف لسرائرهم من أذواق ومشاهدات .

وهكذا نخلص من كل ما تقدم إلى أن التصوف بما يعول عليه أصحابه من علوم تعليمية كسبية ينبغى للسالكين أن يلموا بها قبل أن يأخذوا أنفسهم بأعمال

التصفية والتنقية ، وبما أن نتيجة هذه الأعمال فى بواطن الخاضعين لها والآخذين أنفسهم بها من إشراقات الأذواق ونفحات العرفان ، أنما هو رياضة ومجاهدة من ناحية ، ومكاشفة ومشاهدة من ناحية أخرى ، وأنه بعبارة أخرى عبارة عن علم لتهذيب النفس الإنسانية ، وعمل على تخلى هذه النفس عن الأخلاق المذمومة ، وتحليها بالأخلاق المحمودة ، وأنه بعد هذا وذاك أستعداد للتجلى وتلق للفيض ، أو هو — بعبارة أوضح وأدل على حقيقته ، وعلى حقيقة ما ينطوى عليه من المعانى العلمية والعملية — علم كلى قد اشتمل على ثلاثة علوم جزئيـة هى : علم النفس ، وعلم الأخلاق ، والعلم الإلهى. وهنا يتبين وجه الإتصال بين التصوف والفلسفة ، كما يتبين وجه الفساد فى زعم من زعم أن التصوف إنما هو محض أوهام وخيالات ، ومجرد أحلام وخرافات إذ الحق الذى لا شبهة فيه ولا غبار عليه هو أن التصوف ليس فى حقيقته المبرأة عن البدع والشوائب إلا فلسفة روحية إسلامية تدور على النفس الإنسانية ، وما تقوم به أخلاقها ، وتستقيم عليه أذواقها .